سكينة بنت الحسين

أشرنا في كتاب «الأخلاق عند الغزالي» عند الكلام عن الباطنية، إلى أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ليس إلا أثرًا للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشرق، والفاطميون في الغرب، وأن الدعاة نجحوا في حشو تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات والوساوس والأضاليل، وضربنا المثل بالمعبودات الصغيرة التي تسكن سماء القاهرة من عِترة سيدنا الحسين!

واليوم نجرد القلم لتصوير السيدة سُكينة، لا لنقنع من لا يقتنع بأنه لا خير في الطواف حول القبور، ولا لنجرِّح سيدة هي منذ أزمان موضع التقديس، ولا لنكبت قومًا لا همَّ لهم إلا أن يتصيدوا لنا الهفوات على حساب الدين، إنما نكتب اليوم، كما كتبنا من قبل، متأثرين بفكرة واحدة كانت ولا تزال محور نُبدِئ فيه وما نعيد، وهي أن الإنسان مظهر من مظاهر الحياة، لا مفرَّ له من أن يكون مصدرًا للخير والشر، والظلمات والنور، والهدى والضلال.

والحياة تريده كذلك، فلو قد أراد أن يحور ملكا مسكنه في السماء، أو أن يصير شيطانًا دأبه البغي والإغواء، لما استطاع إلى ذلك سبيلًا، إنما هو أداة لهذه الحياة الغوية، الرشيدة، التي تطيب حين تشاء، وتخبث حين تريد، بلا رقيب ولا حسيب!

والسيدة سكينة كانت بنت الطبيعة قبل أن تكون بنت الحسين، كما كان أبوها غَذِيَّ الفطرة، قبل أن يكون سِبط الرسول، فلا يغضب قوم إن ذكرنا أنها كانت في عفافها نزقةً طائشة، تؤثر الخفة على الوقار، وتهوى أن يخلد حسنها في قصائد

الشعراء، فقد قضت الطبيعة أن تكون المرأة كذلك، إلا أن قدر لها المسخ فعادت شُرطيًّا[1] يلبس أثواب النساء.

وهذه محاولة نحتاج إليها في مصر لنسوِّغ ما نكتبه عن السيدة سكينة في مثل هذا العصر الذي يفيض بأخبار التردد والإشفاق، أما صورة تلك السيدة كما رسمها الأولون فهي صورة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ، ولو كتب عنها فصل في مجلة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية لتلقاه أهل الغرب بالقبول، وعدوا حياتها المرحة دليلًا على تأصُّل الحضارة في تلك الأسرة التي سادت الشرق زمنًا غير قليل.

ويا ليتني أعرف متى يتفق الناس على أصول الأخلاق. ففي بعض ما ننكر اليوم صور من الحياة الاجتماعية كانت في العصور الماضية من السائغ المألوف، وفي بعض ما نألفه ونرضاه أنماطٌ من العادات والتقاليد كانت مما يكره الأقدمون، حتى الألفاظ والتعابير يُديلها العرف، وتُحيلها الأوضاع، وأشدنا حرصًا على الأدب المكشوف يندى وجهه أمام طائفة من الكلمات، لم يكن يتحرج منها المتجملون المهذبون في الزمن القديم، فلا يظن ناس أن ما ينكرونه على السيدة سكينة كان يقاس في عصرنا بنفس ما عندهم من المقاييس. وإن كانت عناصر التحرُّج والتزمُّت غير جديدة في البيئات الإسلامية، فما أظن هذه السيدة سلمت في صلتها بابن أبي ربيعة من متورِّع يرميها على طُهرها بالخلاعة والمجون.

وأعود فأقول: إني أكتب هذا الفصل وأنا أضمر الحب والإجلال لتلك السيدة النبيلة، التي قدرت نعمة الله عليها، فدلَّت وتاهت بما وُسمت به من الملاحة والجمال، وعاشت في رعاية الحسن والحب، غير حافلة بأوضاع الاجتماع، وكان فيها بلا ريب ما يَنهى مثلها عن التبذل في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء.

---

(١) الصواب في الشرطي سكون الراء، والتحريك خطأ؛ لأنه نسبة إلى الشرط الذي هو جمع، والشرطة في الأصل الكتيبة.

حياتها الأدبية:

كانت السيدة سكينة حريصة على أن تعيش عيشة نابهة ملؤها الزهو والإعجاب، ويظهر مما نقل عنها من شتى الأحاديث أنها كانت سليمة الذوق في اختيار الوصائف، وكان بيتها لذلك خفيف الظل على الأدباء والشعراء، وكانت ترعى الحياة الأدبية رعاية لا تخلو من قسوة وعنف، فتفاضل بين المعاني والأغراض، وتجبه من تشاء من الشعراء بلاذع النقد وموجع التجريح، وكانت تهتم بنوع خاص بالمعاني الوجدانية التي تقال في وصف المرأة وفي الخضوع، لما لها من السطوة والجبروت. ولها حديث ممتع في نقد جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب، أثبتناه في البحث الأول من كتاب «الموازنة بين الشعراء» وناقشناه هناك، فلا نعود إليه الآن. ونكتفي بإيراد حديثها مع راوية جرير وراوية كثير وراوية الأحوص، حين اجتمعوا بالمدينة وافتخر كل رجل منهم بصاحبه، وذهبوا إليها يحكمونها لما كانوا يعرفون من بصرها بالمعاني الجيدة، فقد قالت لراوية جرير بعد أن استأذنوا عليها فأذنت لهم، وعرفت ما كان من أمرهم: أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الطُّروق؟[1] ... قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره!

ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

يقر بعيني ما يقرُّ بعينها ... وأحسن شيء ما به العين قرَّتِ

فليس شيء أقرَّ لعينها من النكاح، أفيحب صاحبك أن يُنكح؟! قبَّح الله صاحبك وقبح شعره!

---

(١) الطروق: زيادة الليل. سمي كذلك لحاجة من يقدم ليلًا إلى طرق الباب؛ أي دقه.

ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طِلابيها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى، إنما يطلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره!

ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدي

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده، قبَّحه الله، وقبح شعره! ألا قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعدٌ لذي خلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلًا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال: نعم. قالت: قبحه الله وقبح شعره، ألا قال: تعانقا؟

فهي كما يرى القارئ قاسية عنيفة تتلمس الهفوات، وتعد السيئات، وتخاطب الرواة بلهجة خشنة جافية لا رفق فيها ولا إيناس، وما كانوا ليحتملوها لولا جمالها وسيطرتها على ناحية من الحياة الأدبية في ذلك العصر: هي تقدير الشعر الذي قيل خاصة في التشبيب بالنساء. ومن ذا الذي يرضى بأن تظلمه سيدة يلوذ بجمالها النُّبل والجاه والجمال؟ فما كل ظالم بغيض، ولا كل مظلوم مغبون!

ومن مظاهر عنفها الذي كان يتلقاه الشعراء بالقبول حديثها مع الفرزدق وقد خرج حاجًّا، فلما قضى حجه خرج إلى المدينة فدخل مسلمًا، فقالت له: يا فرزدق! من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت! أشعر منك الذي يقول:

بنفسي من تجنُّبُهُ عزيزٌ ... عليَّ ومن زيارته لِمامُ
ومن أُمسي وأُصبح لا أراهُ ... ويطرقني إذا هجع النيام

قال: والله لئن أذنت لي لأسمعنك أحسن منه. قالت: لا أحب! فاخرج عني. ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها، فقالت: يا فرزدق! من أشعر الناس؟ قال: أنا! قالت: كذبت! صاحبك أشعر منك حيث يقول:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ... ولزرت قبرك والحبيب يُزارُ
كانت إذا هجر الضجيع فراشها ... كتم الحديث وعفَّت الأسرار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ... ليلٌ يكر عليهمُ ونهار

فقال: والله لئن أذنت لي لأسمعنك أحسن منه، فأمرت به فأخرج، ثم عاد إليها في اليوم الثالث وحولها مُوَلَّدَات كأنهم التماثيل، فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها، فقالت: يا فرزدق! من أشعر الناس؟ فقال: أنا! فقالت: كذبت! صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إنَّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ ... قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراكَ به ... وهنَّ أضعف خلق الله أركانا
أتبعتهم مقلة إنسانها غرق ... هل ما ترى تارك للعين إنسانا

فقال: يا بنت رسول الله! إن لي عليك حقًّا عظيمًا. ضربت إليك من مكة إرادة السلام عليك، فكان جزائي منك تكذيبي ومنعي من أن أُسمعك، وبي ما قد عِيل معه صبري، وهذه المنايا تغدو وتروح، ولعلي لا أفارق المدينة حتى أموت، فإن أنا مت فأمري أن أدرج في كفني وأدفن في حِر تلك الجارية. يعني الجارية التي أعجبته، فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية، فخرج بها آخذا بريطتها، وأمرت الجواري أن

يضربن الدفوف تهنئةً لهما، ثم قالت: يا فرزدق! أحسن صحبتها فإني آثرتك بها على نفسي.

فلو صحت هذه القصة لكانت دليلًا على تسامح تلك السيدة وغفرها تهافت الشعراء على ما كانت تملك من المولدات الحسان، والشاع لم يخلق إلا ليشقى بالحسن ويعذب بالجمال، وبقدر إحساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين وعلمها بما كتب عليهم من سفه المنى وطيش الأحلام، كانت ترق وتلين كلما شهدت إخلاصهم لما خُلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق. ويمكن الحكم بأن في توفُّرها على نقد النواحي الغزلية دليلًا على أنها كانت تحيا حياة وجدانية معقدة، وكانت تجد في تفقد الصلات بين أرواح الشعراء وقلوب الناس مفرًّا من لوعة الوجد المكتوم، ووقدة الحزن الدفين.

عنايتها بالغناء:

وكانت سكينة تُعنى بنقد الغناء عنايتها بنقد الشعر، وكان المغنون يقصدونها لذلك؛ فقد ذكر صاحب الأغاني أنها حجت فدخل إليها ابن سُرَيج والغريض، وقد استعار ابن سريج حلة لامرأة من قريش فلبسها، فقال لها ابن سريج: يا سيدتي! أني كنت صنعت صوتًا وحسنته، وتنوقت فيه، وخبأته لك في حريرة في درج مملوء مسكًا فنازعنيه هذا الفاسق -يعني الغريض- فأردنا أن نتحاكم إليك فيه، فأينا قدمته فيه تقدم، قالت: هاته! فغناها:

عـــوجي علينـــا ربـــة الهـــودج ... إنـــك إلَّا تفعـــلي تَحْرَجـــي[1]

أني أُتيحـــــت لي يمانيَّـــــةٌ ... إحـــدى بنـــي الحـــارث مـــن مَـــذحِج

تلبـــث حـــولًا كـــاملًا كلـــهُ ... لا نلتقـــي إلا عـــلى مـــنهج[1]

---

(١) من الحرج وهو الإثم.

في الحـــج إن حجـــت ومـــاذا منـــي وغـــيره إن هـــي لم تحجُـــجِ

فقالت سكينة: ما أشبهكما إلا باللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري الحسان لا يُدرى أيهما أحسن.

وكان بيتها مألفًا للمغنين، وكانت تؤثر ترفيه الناس بما تستطيع تقديمه إليهم من مُتع الغناء. حدث عبيد بن حنين الحيرى قال: كان المغنون في عصر جدي أربعة نفر: ثلاثة بالحجاز، وهو وحده بالعراق، والذين بالحجاز ابن سريج والغريض ومعبد، فكان يبلغهم أن جدي حنينًا قد غنَّى في هذا الشعر:

هـــلَّا بكيـــت عـــلى الـــشباب الـــذاهب وكففـــت عـــن ذم المـــشيب الآيـــب

هـــذا ورُب مـــسوّفين ســـقينهم مـــن خمـــر بابـــل لـــذة للـــشارب

بكـــروا عـــليَّ بـــسُحرةٍ فـــصبَحتُهم مـــن ذات كَرْنيـــبٍ كقعـــب الحالـــب[٢]

بزجاجـــة مـــلء اليـــدين كأنهـــا قنـــديل صـــبح في كنيـــسة راهـــب

فاجتمعوا فتذاكروا أمر جدي وقالوا: ما في الدنيا أهل صناعة شر منا. لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لا نزوره ولا نستزيره، فكتبوا إليه، ووجهوا له نفقة، وكتبوا يقولون: نحن ثلاثة وأنت وحدك، فأنت أولى بزيارتنا، فشخص إليهم، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره، فخرجوا يتلقونه، فلم يُر يوم كان أكثر حشرًا ولا جمعًا من يومئذ. ودخلوا فلما صاروا في بعض الطريق قال لهم معبد: صيروا إليَّ. فقال له ابن سريج: إن كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتي سكينة بنت الحسين عطفنا إليك. فقال: ما لي من ذلك شيء. وعدلوا إلى منزل سكينة، فلما دخلوا إليها

(١) المنهاج الطريق، ومثله النهج والمنهاج.

(٢) الكرنيب -ويسمى أيضًا المجيع بفتح الميم-: تمر يعجن بلبن ولبن يشرب على التمر. والقعب -بالفتح-: القدح الضخم. وفي البيت شيء من الغموض.

أذنت للناس إذنًا عامًّا، فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها، ثم إنهم سألوا جدي حنينًا أن يغنيهم صوته الذي أوله:

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب

فغناهم إياه بعد أن قال لهم: ابدءوا أنتم. فقالوا: ما كنا لنتقدمك، ولا لنغني قبلك حتى نسمع هذا الصوت، فغناهم إياه، وكان من أحسن الناس صوتًا، فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه، فسقط الرواق على من تحته، فسلموا جميعًا وأخرجوا أصحاء، ومات حنين تحت الهدم. فقالت سكينة: لقد كدر علينا حنين سرورنا. انتظرناه مدة طويلة: كأنَّا والله كنا نسوقه إلى منيته[1].

ولها مع ابن سريج أخبار رأينا أن نضرب عنها صفحًا لما في مقدماتها من مآثم تقف عندها حدود الأدب المكشوف.

أزواجها:

تزوجت السيدة سكينة عدة أزواج، أشهرهم مصعب بن الزبير، وقد رأينا أن نكتب عنه هنا كلمة وجيزة لأمرين: الأول: أنه جمع بينها وبين عائشة بنت طلحة، فهو وثيق الصلة بما عنينا به من ترجمة هاتين المليحتين، الثاني: أنه يمثل الفتوة العربية أصدق تمثيل. ولا أعرف شيئًا أحب إلى النفس من الحديث عن أولئك الفتيان الغطاريف، الذين ملؤوا الدنيا بأخبار البأس والجود.

ويكفي في الإشادة بذكر ذلك الفتى أن يعرف القارئ أنه أعيا عبد الملك بن مروان وعنَّاه، وأن عبد الملك كان يوجه إليه جيشًا بعد جيش فيهزمون، فلما طال ذلك عليه واشتد غمه أمر الناس فعسكروا، ودعا بسلاحه فلبسه، فلما أراد الركوب

(١) راجع أخبار حنين في الجزء الثاني من الأغاني.

قامت إليه أم يزيد ابنه -وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية- فقالت: يا أمير المؤمنين، لو أقمت وبعثت إليه لكان الرأي. فقال: ما إلى ذلك من سبيل! فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب. فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال: وأنت ممن يبكي! قاتل الله كثيرًا. كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول:

إذا مـــا أراد الغـــزو لم تـــثن همـــهُ حـــصانٌ عليهـــا نظـــم دُرٍّ يزينُهـــا

نهتـــه فلـــما لم تـــر النهـــي عاقـــهُ بكـــت فبكـــى ممـــا شـــاجها قطينهـــا

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج[1].

وقال عبد الملك يومًا لجلسائه: من أشجع الناس؟ فأكثروا في هذا المعنى. فقال: أشجع الناس مصعب بن الزبير، جمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وابنة الحميد بنت عبد الله بن عباس؛ وولي العراقين، ثم زحف إلى الحرب، فبذلت له الأمان والحباء والولاية والعفو عما خلص في يده، فأبى قبول ذلك، واطرح كل ما كان مشغوفًا به من ماله وأهله وراء ظهره، وأقبل بسيفه قَرْمًا يقاتل، ما بقي معه إلا سبعة نفر، حتى قُتل كريمًا[2].

وكانت سكينة تخفى ما في قلبها من مصعب، وتكاتمه وجدها به، وعطفها عليه، دخل إليها في حربه مع عبد الملك وقد نزع عنه ثيابه، ولبس غلالة، وتوشح بثوب، وأخذ سيفه، فعلمت أنه لا يريد أن يرجع، فصاحت من خلفه: واحزناه عليك يا مصعب! فالتفت إليها وقال: أو كل هذا لي في قلبك؟ فقالت: إي والله! وما كنت أخفى أكثر! فقال: لو كنت أعلم أن هذا كله لي عندك، لكانت لي ولك حال. ثم خرج ولم يرجع.

---

(١) الأمالي ج١ ص١٤.

(٢) الأغاني ج١٨ ص١٦٦.

ولما دخلت سكينة الكوفة بعد قتل مصعب خطبها عبد الملك فقالت: والله لا يتزوجني بعده قاتله أبدًا!

وفي رثاء مصعب يقول رجل من بني أسد بن عبد العزي:

لعمرك إن الموت منا لمولعٌ ... بكل فتًى رحب الذراع أريبِ

فإن يك أمسى مصعب نال حتفه ... لقد كان صلب العود غير هيوب

جميل المحيا يوهن القِرن غَربهُ ... وإن عضه دهر فغير رهوب

أتاه حمام الموت وسط جنوده ... فطاروا سلالًا واستقى بذنوب[1]

ولو صبروا نالوا حبا وكرامة ... ولكنهم ولوا بغير قلوب

وقالت سكينة ترثيه:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي ... يرى الموت إلا بالسيوف حراما

وقبلك ما خاض الحسين منية ... إلى القوم حتى أوردوه حماما

جمالها:

كانت السيدة سكينة إحدى نوادر الجمال في العصر الذي ظهرت فيه، وكانت تنافس عائشة بنت طلحة معبودة العيون والقلوب في ذلك الحين، وكانت حريصة مُسرفة في الحرص على جمالها، حتى ليذكر صاحب الأغاني أنه خرجت بها سلعة[2] في أسفل عينها حتى كبرت، ثم أخذت وجهها وعينها، وكان درافيس منقطعًا إليها وفي خدمتها، فقالت له: ألا ترى ما قد وقعت فيه؟ فقال لها: أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك؟ قالت: نعم! فأضجعها وشق جلد وجهها أجمع، وسلخ اللحم

(١) الذنوب -بفتح الذال المعجمة-: الدلو.

(٢) السلعة: زيادة في البدن كالغدة.

اللحم من تحتها، حتى ظهرت عروقها، وكان منها شيء تحت الحدقة، فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية، ثم سلَّ عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع، وردَّ العين إلى موضعها وسكينة مضطجعة لا تتحرك ولا تئن، حتى رفغ مما أراد، وزال ذلك عنها وبرئت منه، وبقي أثر تلك الحزازة في مؤخر عينها، فكان أحسن شيء في وجهها من كل حلي وزينة، ولم يؤثر ذلك في نظرها ولا في عينها.

وكانت تحدث عن نفسها فتقول: أُدخلت على مصعب وأنا أحسن من النار الموقدة، وكانت ابنتها من مصعب جِد جميلة، فكانت تثقلها بالحليِّ واللؤلؤ وتقول: ما ألبستها إياه إلا لتفضحه.

وكانت سكينة أحسن الناس شعرًا، وكانت تصفِّف جُمتها تصفيفًا لم يُرَ أحسن منه، حتى عُرف ذلك، وكانت تلك الجمة تسمى «السكينية»، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلًا يصفف جمته السكينية جلده وحلقه. وفي هذا دليل على أنها صاحبة بدعة Mode في تصفيف الشعر وتنسيقه، وكان تقليدها في تلك البدعة مما يقدح في أخلاق الرجال، ولولا تحرُّج المسلمين الأولين من التصوير، لرأينا كيف كانت الفتنة في ذلك التصفيف، ولعرفنا بُعد ما بين تلك البدعة وبدعة الشعر المقصوص في هذا الجيل.

أخلاقها:

كانت السيدة سكينة تميل إلى الفكاهة والمزاح، تخالط الأجلة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، فتمزج الجد بالهزل، وتخلط الوقار بالمجون، ولها في الدعابة أحاديث طريفة؛ لسعتها يومًا دبرة[1] فقالت لها أمها: ما لك يا سيدتي؟ فضحكت وقالت: لسعتني دُبيرة، مثل الأبيرة، أوجعتني قُطيرة! وبعثت مرة إلى صاحب الشرطة: إنه

(١) الدبرة: هي النحلة أو الزنبور.

دخل علينا شامي، فابعث إلينا بالشُّرَط. فلما أتى إلى الباب أمرت ففُتح له، وأمرت جارية من جواريها فأخرجت إليه برغوثًا، ثم قالت: هذا الشامي الذي شكوناه!

وقيل لها يومًا: أمك فاطمة يا سكينة وأنت تمزحين كثيرًا وأختك لا تمزح! فقالت: لأنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة -تعني فاطمة- وسميتموني باسم جدتي التي لم تدرك الإسلام -تعني آمنة بنت وهب أم الرسول. وكانت سكينة تسمى آمنة، وسكينة لقب.

وكانت مع ميلها المفرط إلى الدعابة عفيفة نقية العرض، لا يؤخذ عليها غير العبث البريء، واللهو المباح.

وكانت لا تخلو من الخيلاء: فقد رآها سفيان بن حرب ترمي الجمار، فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها -وكانت فيما يظهر ضيقة الصدر في معاملة الأزواج؛ ويرجع ذلك إلى غيرتها الشديدة وعنفها في مراقبة العشير-: فقد روي أبو الفرج الأصبهاني أن زيد بن عمرو بن عثمان خرج إلى مال له مغاضبًا لسكينة، وعمر بن عبد العزيز يومئذ والي المدينة، فأقام سبعة أشهر، فاستعدته سكينة على زيد وذكرت غيبته مع ولائده سبعة أشهر، وأنها شرطت عليه أنه إن مسَّ امرأة، أو حال بينها وبين شيء من ماله، أو منعها مخرجًا تريده، فهي خليَّة. فبعث إليه عمر فأحضره، وأمر ابن حزم أن ينظر بينهما، فجاءت سكينة وزيد جالس عند ابن حزم، وفاطمة امرأة ابن حزم جالسة في الحجلة، فقال ابن حزم: أدخلوا سكينة وحدها. فقالت: والله لا أدخل إلا ومعي ولائدي. فأدخلن معها، فلما دخلت قالت: يا جارية! اثني لي هذه الوسادة. ففعلت، وجلست عليها، ولصق زيد بالسرير حتى كاد يدخل في جوفه خوفًا منها. فقال لها ابن حزم: يابنة الحسين! إن الله يحب القصد في كل شيء. فقالت له: وما أنكرت مني! إني والله وإياك كالذي يرى الشعرة في عين صاحبه، ولا يرى الخشبة في عينه! فقال لها: أما والله لو كنتِ رجلًا لسطوت بك!

فقالت له: يابن فرتني! لا تزال تتوعدني! وشتمته وشتمها. فلما بلغا ذلك قال ابن أبي الجهم العدوي: ما بهذا أُمرنا، فأمض الحكم ولا تُشاتم. فقالت لمولاة لها: من هذا؟ قالت: أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم فقالت: لا أراك هاهنا وأنا أُشتم بحضرتك. ثم هتفت برجال قريش، فغضب ابن أبي الجهم. وقالت: أما والله لو كان أصحابي في الحيرة أحياءً لكفُّوا والله العبد اليهودي عند شتمه إياي. عدو الله! تشتمني وأبوك الخارج مع يهود ضنانة بدينهم لما أخرجهم رسول الله إلى أريحاء! فلما كلمها زيد وخضع لها قالت: ما أعرفني بك يا زيد! والله لا تراني أبدًا! أتراك تمكث مع جواريك سبعة أشهر ثم أعود إليك! والله لا تراني بعد الليلة أبدًا!

وأظرف ما كان يجري بينها وبين زوجها هذا تكليفها أشعب بمراقبته وترسُّم خُطاه، لتعلم ما كان يجترح من وصل الولائد المِلاح.

صلتها بابن أبي ربيعة:

ذكر صاحب الأغاني[1] أنه اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف، فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه، فقالت سكينة بنت الحسين: أنا لكنَّ به! فأرسلت إليه رسولًا وواعدته الصَّورين وسمَّت له الليلة والوقت، وواعدت صواحباتها، فوافاهن عمر على راحلته، فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان انصرافهن. فقال لهنَّ: والله إني لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله والصلاة في مسجده، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئًا. ثم انصرف إلى مكة وقال:

قالت سكينة والدموع ذوارف ... منها على الخدين والجلباب

ليت المغيريَّ الذي لم أجزه ... فيما أطال تصيُّدي وطِلابي

كانت ترد لنا المنى أيامنا ... إذ لا نُلامُ على هوًى وتصابي

---

(١) في أخبار عمر في الجزء الأول.

خُبِّرت ما قالت فبتُّ كأنما ... يرمي الحشا بنوافذ النُّشابِ[1]

أسكين ما ماء الفرات وطيبهُ ... مني على ظمأ وفقد شراب

بألذَّ منك وإن نأيت وقلما ... ترعى النساء أمانة الغُيَّاب

أن تبذلي لي نائلا أشفي به ... داء الفؤاد فقد أطلت عذابي

وعصيت فيك أقاربي وتقطعت ... بيني وبينهمُ عُرى الأسباب

فتركتِني لا بالوصال مُمتعًا ... منهم ولا أسعفتني بثواب

فقعدت كالمهريق فضلة مائهِ ... في حر هاجرة لِلَمْعِ سراب

وقال فيها:

أحب لحبك من لم يكن ... صفيًّا لنفسي ولا صاحبا

وأبذل نفسي لمرضاتكم ... وأُعتب من جاءكم عاتبا

وأرغب في ود من لم أكن ... إلى وده قبلكم راغبا

ولو سلك الناس في جانب ... من الأرض واعتزلت جانبا

ليمَّمت طِيبتها إنني ... أرى قربها العجب العاجبا[2]

فما ظبية من ظباء الأرا ... ك تقرو ودميث الرُّبى عاشبا[3]

بأحسن منها غداة الغميم ... وقد أبدت الخد والحاجبا

غداة تقول على رقبةٍ ... لخادمها: يا احبسي الراكبا

فقالت لها فيمَ هذا الكلام ... وأبدت لها عابسًا قاطبا

فقالت كريمٌ أتى زائرًا ... يمر بكم هكذا جانبا

---

(١) النشاب: النبل.

(٢) الطية: الناحية.

(٣) تقرو: تتبع -ودميث الربى: سهلها ولينها.

شريـــف أتـــى ربعنـــا زائـــرًا فـــأكره رجعتـــه خائبـــا

وذكر صاحب الأغاني قصة أولئك النسوة مع عمر بصورة أخرى في أخبار الغريض، فحدثنا أنه وافاهن على رواحله والغريض معه، وأنه قال عند انصرافه إلى مكة:

ألـم بزينـب إن البـين قـد أفـدا قـل الثـواء لـئن كـان الرحيـل غـدا

فلما كان بمكة قال: يا غريض! أني أريد أن أخبرك بشيء يتعجل لك نفعه، ويبقى لك ذكره، فهل لك فيه؟ قال: افعل من ذلك ما شئت وما أنت أهله. قال: إني قلت في هذه الليلة التي كنا فيها شعرًا، فامض به إلى النسوة فأنشدهن ذلك، وأخبرهن أني وجهت بك فيه قاصدًا. قال: نعم. فحمل الغريض الشعر ورجع إلى المدينة فقصد سكينة وقال لها: جُعلت فداك يا سيدتي ومولاتي! إن أبا الخطاب - أبقاه الله- وجهني إليك قاصدًا. قالت: أوَليس في خير وسرور تركته؟ قال: نعم! قالت: وفيم وجهك أبو الخطاب حفظه الله؟ قال: جعلت فداك! إن ابن أبي ربيعة حملني شعرًا، وأمرني أن أنشدك إياه. قالت: فهاته. فأنشدها:

ألـم بزينـب إن البـين قـد أفـدا قـلَّ الثـواء لـئن كـان الرحيـل غـدا
قـد حلفـت ليلـة الـصورين جاهـدةً ومـا عـلى الحـر إلا الـصبر مجتهـدا
لتربهـا ولأخـرى مـن مناصـفها لقـد وجـدت بـه فـوق الـذي وجـدا
لـو جُمِّـع النـاس ثـم اختـير صـفوتهم شخـصًا مـن النـاس لم أعـدل بـه أحـدا

فقالت سكينة: يا ويحه! فما كان عليه أن لا يرحل في غده! ووجهت إلى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر، وقالت للغريض: هل عملت فيه شيئًا؟ قال: قد غنيته ابن أبي ربيعة. قالت: فهاته! فغناه الغريض فقالت سكينة: أحسنت والله وأحسن

ابن أبي ربيعة! لولا أنك سبقت فغنيته عمر قبلنا لأحسنا جائزتك يا بنانة؟ أعطه بكل بيت ألف درهم. فأخرجت إليه بنانة أربعة آلاف درهم فدفعتها إليه.

وقالت سكينة: لو زادنا عمر لزدناك.

هذا وأحب أن لا ينسى القارئ أننا اعتمدنا في هذه الأخبار على الأغاني والأمالي وزهر الآداب. وقد لاحظنا من قبل أن لا يبعد أن يكون بعض هذه الأخبار غير صحيح. فقد ذكر صاحب الأغاني في موطن آخر[١] أن البيت:

«قالت سكينة» روى «قالت سعيدة»

وأن المراد سعدي بنت عبد الرحمن بن عوف؛ وإنما غيره المغنون فجعلوا سكينة مكان سعيدة، وأن إسحاق الموصلي غنى الرشيد يومًا.

«قالت سكينة والدموع ذوارف»

فوضع القدح من يده وغضب غضبًا شديدًا وقال: لعن الله الفاسق ولعنك معه! فسقط في يد إسحاق، فعرف الرشيد ما به فسكن ثم قال: ويحك أتغنيني بأحاديث الفاسق ابن أبي ربيعة في بنت عمي وبنت رسول الله! ألا تتحفظ في غنائك وتدري ما يخرج من رأسك! عد إلى غنائك الآن وانظر بين يديك! قال إسحاق: فتركت هذا الصوت حتى نسيته، فما سمعه مني أحد بعده[٢].

وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غُنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباء الأقدمون. أما صورتها في رءوس الصوفية، فهي صورة القديسة التي تسيطر على الأرض والسماء. وكل حزب بما لديهم فرحون!

---

(١) ج١٦ ص١٢.

(٢) هذا الكلام نفسه يدل على أنه كان مفهومًا؛ إذ ذاك أن هذا الشعر قيل في سكينة.